اللورد بايرون عاشق أخته

(١٧٨٨ م - ١٨٢٤ م)

«اللورد بايرون»

من أعظم شعراء إنجلترا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، بدأ حياته متعثرًا، لم ير أباه، وكانت أمه عصبية المزاج، وأهملته مربيته لتتفرغ لعشاقها وأصدقائها، كان جميل الخِلقة قبيح الخُلق، فقيرًا مع أنه يحمل لقب لورد، رياضيًا رشيقًا لكنه أعرج، ولأنه افتقد الحب والحنان فى بيته بين أسرته أخذ يبحث عنهما طوال حياته فيرتمى فى أحضان كل امرأة تمنحهما له، فأحب كثيرات وتزوج زواجا فاشلا، ووقع فى حب محرم مع أخته «أوجستا» وتفجرت موهبته الشعرية وهو مازال طفلا، وتجمع حوله المعجبون والمعجبات، مما زاده غرورًا وثقة بالنفس، ومع أن أشعاره اتسمت بالرومانسية والنعومة إلا إنه اتجه إلى الهجاء ولم يترك شاعرًا فى عصره دون أن ينقده ويهجوه، واضطر إلى أن يغادر بلده لندن بعد ما شعر أن الرأى العام كله ضده، وظل طوال حياته شريدًا فى بلاد الدنيا زار البرتغال وأسبانيا وإيطاليا والبانيا واليونان.

ومع عظمة شعره، إلا إنه كان شخصية فذة فى عالم اللذة، ووصل فى ذلك إلى الشذوذ، بل كان كالذئب الذى لا تعجبه الفريسة السهلة، إنما يسعد عندما يقتنصها بنفسه بعد صعوبات كثيرة.

ولد «جورج جوردون بايرون» فى شتاء عام ١٧٨٨ من عائلة معروفة تحمل لقب اللوردية، عاش مع أبويه عامين فقط ثم ذهبت به أمه إلى اسكتلندا لتعيش معه وحدها، ومنذ تلك اللحظة لم ير أباه، فقد سافر هو الآخر إلى فرنسا وتوفى هناك عام ١٧٩٢، أى إن «بايرون» فقد أباه وهو مازال فى الرابعة من عمره، كان من الطبيعى أن يلجأ الطفل إلى أمه لتعوضه حنان أبيه، لكن السيدة «كاترين جوردن» كانت إنسانة مريضة نفسيا، تنتابها حالات عصبية صعبة تدفعها إلى الصراخ وتمزيق ثيابها وتحطيم كل ما يصل ليديها، أصيب الطفل بمرض شلل الأطفال ولم تعتن أمه به مما جعله يصاب بالعرج طوال حياته. بعد وفاة والده انتقلت الأم مع طفلها إلى شقة متواضعة، وألحقته بمدرسة فقيرة ليتلقى العلم.

أما سبب حالة الفقر هذه التى تعانى منها الأسرة فهى الديون الكثيرة التى تركها رب الأسرة، مما جعل الأم تبحث عن العيش المتقشف والمدارس الفقيرة، وزادت معاناة الطفل «جورج بايرون» فى المدرسة من معايرة زملائه له بسبب عاهته، فكان يجرى وراءهم للانتقام منهم ولكنه لا يستطيع اللحاق بهم فيزداد حزنًا وضيقًا من عاهته بل إن والدته نفسها كانت تعيره أحيانًا بعرجه فينظر إليها وقلبه يتمزق حزنًا ليقول: «هكذا ولدت يا أماه»!!

تحالفت ظروف الطفل غير العادية لتجعل منه أكبر شريد بعد ذلك، فقد مات الأب، وقست الأم، وتمكن المرض. من الطبيعى أن يشب مثل هذا الطفل وكله قسوة واستبداد لينتقم من مجتمعه بعد ذلك، وأصيب

بمرض النرجسية، وهو مرض حب الذات وعانى منه طوال حياته بل كانت معاناة الآخرين منه أكثر وأفدح.

اهتمت الأم بأن تحضر مدرس الدين إلى البيت كل مساء ليشرح لطفلها أهمية الدين وفلسفته، وكان «مستر باترسون» مدرس الدين يلقى على الطفل درسًا دينيا لا يتناسب مع سنه، فالمفروض أن يشرح له مبادئ الدين، وضرورة الإيمان بالله الخالق العظيم، لكنه كان يقول للطفل: «.. إن الإنسان ضعيف ولا يقدر أن يفعل شيئا.. حياة الإنسان سراب.. الله يعطى الرزق لمن يشاء والجمال لمن يشاء.. الله يعرف عن الإنسان منذ خلقه كل شيء عنه.. يعرف أنك ستكون تعِسًا فى حياتك.. ويعرف أن أخاك أو جارك سيكون سعيدًا فى حياته.. وفى النهاية يدخل الأشرار إلى جهنم وبئس المصير، والأخيار إلى الجنة والنعيم الدائم..».

ويخرج مدرس الدين بعد ذلك ليترك طفلنا فى حيرة من أمره ويسأل نفسه.. هل الإنسان مسير أو مخير؟ وإذا كان الله يعرف كل شيء عن حياتى مسبقًا وقبل أن أولد فكيف ولماذا يحاسبنى فى النهاية؟ وتكثر الأسئلة فى ذهن «بايرون» الصغير، ولا يقدر عقله البسيط أن يجد لها حلا فتهتز القيم الدينية فى نفسه، ويشك فى كلام مدرس الدين الذى أخطأ فى شرحه ولم يقدم لتلميذه الصغير ما يتفق مع سنه.

ويذهب طفلنا إلى حجرة نومه ليجد مربيته الجاهلة فى انتظاره لتحكى له حكاية قبل النوم، ولجهلها كانت تقول له ما تسمعه عن أسرته وأجداده: «كان والدك ملقبا «بجاك» المجنون، وجدك «بجاك»

المنحوس، ولعنة الله تصيب دائمًا أفراد العائلة..» ثم تستكمل حكايات العفاريت والأشباح حتى ينام الطفل وهو ملئ بالخوف والذعر ويحلم بما سمع من عفاريت وشياطين ومستقبل تعس وحياة حافلة بالنحس والفشل والتعاسة.

أى مناخ فاسد هذا الذى نشأ فيه طفلنا «بايرون»؟ كان من الممكن أن يخلق مجرمًا كبيرًا لا شاعرًا رقيقًا، حقيقة أنه شب مريضًا بالنرجسية والسادية وهى التلذذ بتعذيب الآخرين، ولكن الشعر هذب من طبعه ومرضه وشذوذه.

عندما بلغ «بايرون» الثامنة من عمره أصيب بمرض الحمى، فأشفقت أمه عليه هذه المرة وسافرت به إلى جبال اسكتلندا حيث الحقول الخضراء الشاسعة والجبال الشاهقة، والطبيعة الغنية الجميلة، والطقس المعتدل، وهرب منه المرض، وشعر بحب الطبيعة والجمال والحياة، ثم عاد إلى «ابرديـن» وهناك تعرف إلى فتاة جميلة تدعى «مارى داف» وكان الحب الأول لطفلنا الصغير «بايرون» وهو فى هذه السن الصغيرة، وظلت ذكرى هذه الفتاة تعيش معه طوال حياته.

فى عام ١٧٩٨ بلغ «بايرون» العاشرة من عمره، ومات عمه اللورد الشرير، وبموته بدأ الحظ يطرق باب حياة «بايرون»، إذ ورث لقب «لورد»، وأصبح اسمه «لورد بايرون السادس» سيد نيوستيد، وصاحب ممتلكات روشديل الواسعة، وقررت والدته أن تعيش مع ابنها اللورد، فباعت كل ما تملك وسافرت معه إلى نيوستيد بعد أن استطاعت أن تحصل له معاشًا يقدر بثلاثمائة جنيه سنويا مما رفع مستوى معيشتهما.

لم ينس «بايرون» حبه الأول وهو مازال فى الثامنة من عمره، ومع ذلك فقد خفق قلبه للمرة الثانية وهو فى الثالثة عشرة فأحب إحدى قريباته الجميلات وهى «مرجريت باركر» وملك الحب قلبه وحياته، وفجر موهبته الشعرية، وللأسف لازمه سوء الحظ فماتت الفتاة الجميلة المحبوبة بعد عامين وكانت أول أشعاره رثاء لها قال:

حينما ذهبت لأزور قبر مرجريت
وأنثر الورود على تراب من أحب
هدأت الرياح، وسكن الليل
وأبى النسيم أن يداعب الأشجار
وفى حفير ضيق رقد جسد
تفجر يوما بالحيوية والشباب

التحق «بايرون» بعد ذلك بمدرسة «هارو» وهى تتفق مع مكانته كلورد إذ إن تلاميذها من أبناء النبلاء والطبقة العليا فى المجتمع، ومع ذلك كان يشعر بالحزن دائمًا فهو لورد لكنه فقير، وهو جميل لكنه أعرج، ويزداد الحزن كلما تذكر معاملة والدته الشرسة له، فهى قاسية تضربه أحيانًا وهو الفتى فى الخامسة عشرة من عمره، وكانت ظروفه الاجتماعية هذه تدفعه إلى الوقوع فى الحب دائما، فهو يحتاج إلى الحب والحنان والرعاية التى يفتقدها فى حياته وللمرة الثالثة يحب فتاة جميلة شقية تكبره سنا بعامين تقريبا وتدعى «مارى شاوارت»، كانت تقضى معه وقتها الضائع فى نفس الوقت الذى كان يحبها فعلا،

وعندما تأكد من مشاعرها الضعيفة نحوه تركها حزينًا وقرر أن يتكبر على الناس، وينتقم من كل امرأة تقع فى حبه، وبدأت النرجسية الشديدة تتملكه، فانصرف إلى ممارسة رياضة السباحة وركوب الخيل والملاكمة والمبارزة، واهتم بتنسيق ثيابه وعمل رجيما قاسيا ليقضى على بدانته، إذ كان يتناول وجبة غذائية واحدة طوال اليوم تحتوى على قطعة واحدة من البطاطس أو طبقًا صغيرًا من الأرز مع قليل من الخل، وإذا أراد تغيير الطعام تناول بعضًا من البسكويت مع الصودا كل هذا العذاب من أجل المرأة، فقد كان يميل بشدة إلى النساء، وكان قلبه خفاقا بحبهن دائما، وكان جذابا فى نفس الوقت، فقد أهدته الطبيعة جمالا رائعًا فشعره ذهبى غزير يتهدل على وجهه فى تموجات طبيعية مدللة وعيناه زرقاوان وأنفه دقيق وفمه صغير وشفتاه قرمزيتان ممتلئتان وصوته موسيقى.

بعد أن أنهى دراسته بنجاح فى مدرسة «هارو» التحق «بايرون» سنة ١٨٠٥ بكلية «ترينتى» جامعة كمبريدج، وقرر مجلس الوصاية رفع راتبه إلى خمسمائة جنيه حتى يستطيع تكملة دراسته الجامعية، فاستقل عن أمه واستأجر شقة فى كمبريدج وبدأ يستقل بحياته ويتخلص من آلامه، والتف حوله أصدقاء السوء ودفعوه إلى حياة اللهو والمتعة، وهو المستعد دائما لذلك، فقضى أيامه ولياليه بين أحضان النساء واحتساء الخمر ولعب الميسر، أما الدراسة فلم يهتم بها إلا قبل الامتحان وحسب ككل تلميذ بليد، وعلى الرغم من هذه الحياة الصاخبة

اللاهية إلا أن «بايرون» لم يكن سعيدا، بل كان حزينًا كئيبًا وكان الشعر سلوته، يمسك القلم ليفضى إلى الأوراق بأدق مشاعره، فيستريح من آلامه وأحزانه، ثم جمع أشعاره الكثيرة فى أول ديوان أصدره تحت عنوان «ساعات الخمول» سنة ١٨٠٦ ونجح الديوان فى زيادة شهرة «بايرون» وتقرب المعجبون والمعجبات إليه مما زاده غرورا ونرجسية، من القصائد التى احتواها هذا الديوان قصيدة يرثى فيها الشاعر كلبه الوفى، وقد علقها على قبره قال فيها:

فى هذا المكان يرقد جسد امتلك جمالا دون غرور
وقوة دون خشونة وشجاعة دون وحشية
بل امتلك فضائل الإنسان دون رذائله

بعد عامين من صدور الديوان نشر أحد النقاد نقدا لاذعًا له هاجم فيه الشاعر وشعره، بل وشخصه مما ضايق «بايرون» وقرر أن يرد على هذا الهجوم بهجوم على النقاد والشعراء ولكنه تروى فى كتابته.

فى سنة ١٨٠٨ حصل «بايرون» على درجة الماجستير من جامعة «كمبردج»، وسافر إلى «نيوستيد» ليتسلم ممتلكاته، فقد بلغ سن الرشد ومن حقه أن يتصرف كما يشاء، وعندما رأى قصره حزن حزنًا شديدًا على كل ما فيه، إذ كان أطلالا خربة فكيف يعيش فيه؟

وهو لا يملك المال الذى ينفقه فى إعادة بنائه؟

وقرر أن يعد بعض حجراته فقط، كما لم يسمح لأمه أن تعيش معه.

استمر «بايرون» فى حياته اللاهية يغترف من اللذات كما يشاء، بل كان يسخر من حياته ووجوده قائلا: «أنا أعانق إذن أنا موجود». مقلدا الفيلسوف العظيم ديكارت الذى قال: [أنا أفكر إذن أنا موجود].

ومن أقوال «بايرون» أيضًا: «ليكن حظنا اليوم من الخمر والنساء والمرح.. وغدًا الوعظ والمرض والدواء..».

كان «بايرون» محظوظًا فى علاقته بالنساء، فقد كن يتهافتن عليه ويحْظنَهُ برعايتهن، ويُشْبعْنَ فيه نرجسيتَه الشديدة، فهذه صديقته السابقة «مارى شاوراث» تبعث له برسالة حب حتى يعود إليها كما كان، ولكنه يأبى أن يعود لامرأة لعبت بعواطفه على الرغم من أنه مازال يحبها، ولم يجد بدا من أن يترك «نيوستيد» ويذهب بعيدًا حتى لا يقابلها وأمسك بالقلم يفضى له بمشاعره قال:

لن أرى سحرك مرة أخرى.. ففى البقاء عذابى
وفى قربك حسرة دائمة.. سأكون حكيما إن رحلت
وهربت بعيدا عن الإغراء.. فلا أستطيع أن أرى جنتى
ولا أرغب العيش فيها من جديد..

لم ينس «بايرون» الذين نقدوه وسخروا من أشعاره وشخصه بعد إصداره لديوانه الأول، وظل يتمهل حتى أعد النقد والهجاء المناسب لهم، وترك العنان لنفسه وقلمه فاختار الكلمات القاسية اللاذعة وهاجم الجميع بحق ودون حق، ولم ينج من نقده أحد، وبخاصة الشعراء المعروفون وقتذاك.. «توماس مور»، «سوزى»، «كولوردج»،

«ردزورث»، «وكوبر» وغيرهم.

أفاق شـــعراء إنجلترا على هذا الشاب الصغير والشاعر الجديد الذى أطـــاح بهم ولم يحترمهم ويقدر مواهبهم، وأخذوا يفكرون ماذا يفعلون معه؟ ووجد «بايرون» أن الجميع ضده وحتى يريح ويستريح قام برحلة طويلـــة لمدة عامين إلى البرتغال وأســـبانيا وأثينـــا والبانيا، وكان يكتب انطباعاتـــه وملاحظاته ومشـــاعره فى وقتها أثناء الرحلة وســـاعده فى ذلك موهبته الشـــعرية الفذة، ولما عاد إلى إنجلترا وجد حصيلة الرحلة مجموعة كثـــيرة من القصائد التى تصف البلـــدان التى زارها والظواهر العديدة التى صادفها وأعجبته أو لم تعجبه فرصدها، ومن هذه الحصيلة أصدر ديوانه الثانى تحت عنوان «أســـفار الطفل هارولد» ســـنة ١٨١٢، جمع فيه بين الشعر الوصفى والغزلى والترجمة الذاتية للحالة النفسية التى يشـــعر بها، وعن آماله وآلامه وطموحه وفلسفته فى الحياة، وفى قصيدة الوحيد قال:

لم أحب هذه الدنيا ولم تحبنى هى
لم أستنشق هواءها الفاسد.. ولم أركع لأصنامها
لم أقدم خدى لابتسامة زائفة.. ولم أصوت بالدعاء للأشباح
قد ينظروننى بين القوم فيحسبوننى منهم
حقا.. إننى أقف بينهم ولكنى لست منهم

ومـــن أشـــعاره الغزليـــة التى ضمهـــا الديـــوان قصيدة عـــذراء أثينا يقول فيها:

عذراء أثينا.. ردى إلىَّ قلبى قبل الرحيل
ولكن قلبى قد هجر صدرى إذن فإليك باقية
وعن أثينا أيضًا كتب يقول:
يونان الجميلة.. أيتها الخرائب الحزينة لمجد ذهب
إنك خالدة وإن تداعيت.. عظيمة وإن هويت

يعتبر ديوان «بايرون» الثانى هو البداية الحقيقية له كشاعر كبير مرموق، إذ اهتم الناس بالديوان وهرول الجميع لشرائه واقتنائه، ووجد الشاعر حوله من المعجبين والمعجبات ما لم يكن يتوقعه لدرجة أنه قال: «.. استيقظت فجأة فوجدت نفسى مشهورا..»

من هؤلاء النسوة اللائى همن إعجابا به «ليدى كارولين لامب» وكانت نجمة من نجوم المجتمع الإنجليزى، عرفت بجمالها ورشاقتها، وقد أعجبت بأشعار «بايرون» قبل أن تراه، فلما رأته زادت إعجابا به، وضربت عُرض الحائط بزوجها وحياتها وارتمت فى أحضان شاعرنا الشاب الجميل الوسيم، وأحبته حبا سيطر على كل كيانها، ولكنه كان يقضى معها وقته الضائع لمجرد التسلية مما ضايقها وأشعل فى نفسها نار الغيرة عليه والحقد منه، وفى إحدى الحفلات أمسكت بسكين واقتربت منه لتطعنه، فابتسم فى ثقة دون خوف وقال لها:

«هيا يا عزيزتى، ولكن إذا كنت تلعبين دور البطولة فاحسنى اختيار ضحيتك، ولتكن الطعنة إلى قلبك أنت أما قلبى أنا فقد طعنته كثيرا من قبل..».

وتـرك «بايـرون» صديقته «كارولـين» ووقف مع غيرهـا فى غرفة أخـرى، وجن جنونها. وحاولت بعد ذلك إعادة علاقته به دون فائدة، فقـد كان يحتقرها فى قرارة نفسـه وأخيرا ذهبـت إلى بيته فى غيابه وكتبـت على غلاف أحد كتبه بالخط العريـض.. اذكرنى.. ولما عاد إلى بيته وقرأ كلمتها انفعل بها وكتب قصيدة قال فيها:

اذكرى واذكرى حتى اليوم الذى تكون فيه
الجحيم مثواك والندم والعار لن يتركاك
اذكرى واذكرى جيدا أن زوجك أيضًا لن ينساك
فكلانا سوف يذكرك.. خائنة له شيطانة لى

ظلت ذكرى «ليدى كارولين لامب» السـيدة السيئة محفورة فى ذهن «بايـرون» طوال حياته، بل دفعته إلى كراهية كل النسـاء والشـك فى سلوكهن وقيمهن، وهو المحب للمرأة والعاشق لجمالها، وتمضى الأيام ويتذكر شـاعرنا شقيقته من أبيه «أوجسـتا» والتى رآها قبل ذلك رؤية عابرة، فى نفس الوقت وصله خبر قرب وصولها إلى لندن فيفرح وينتظر وصولها بفارغ الصبر، فربما تؤنس وحشـته وتنسـيه تجربته السيئة الأخيرة، وتنتشـله من همومه وأحزانه، واسـتقبلها استقبالا رائعا، ووجد فيهـا الهدوء والمرح والجمال الذى لم يجده فى غيرها، بل وجد تشابها فى الخِلقة والخُلق، أليست هى أخته؟ ولما كان «بايرون» مريضًا بالنرجسية الشديدة فقد أحب شقيقته لأنه وجد فيها نفسه، واندفع فى حبه لها حتى وصل إلى العلاقة المحرمة، وكانت هى تعانى من قسـوة

زوجها المقامر العربيد، فاندفعت فى نفس الاتجاه مع شـقيقها وأصبح الشقيقان عاشقين لبعضهما، ونسيا كل القيم الأخلاقية والدينية، وحتى كلام الناس الذى بدأ ينتشـر فى الأرجاء عـن علاقتهما المحرمة، ولم يكتف «بايرون بالوقوع فى هذا الحب المحرم، بل دفعته شقاوته إلى أن يكتب قصة تحت عنوان «عروس أبيدوس» جعل بطلتها «زليخا» تحب أخاها «سليما» حبا شديدًا وتقول له فى بعض أبيات القصة التى تقع فى ألف ومائتين من الأبيات:

«.. لـو انتزعـوك منى فقدت أنت حبيبك، وفقدت أنا مرشـدى. لم تعرف الدنيا.. ولن تعرف.. اللحظة التى تشتت بين روحينا.. وعندما يهبـط عزرائيل بصولجانـه المخيف ليفرق الأحباب سـيميتنا حتما.. ولكن ليتحد قلبانا فى التراب..».

مع حبه الشـديد لأخته التى ملأت عليه الدنيا وعوضته عن تجاربه الفاشـلة مع النسـاء قبل ذلك، إلا إنه كان يشعر بالخطيئة فى أعماقه، وكان ضمـيره يؤنبه عما يفعل مع أختـه وكتب قصيدة يترجم فيها عن أدق مشاعره نحوها قال:

حرام أن يجرى اسمك على لسانى أو يخطه قلمى
ففى نغماته حزنى.. وفى قصتنا خطيئة
والدمع الذى يسيل على خدى فيحرقه
يعبر عما يعتلج قلبى من أفكار حزينة
والساعات التى قضيناها قصيرة لم تشبع لنا رغبة

طويلة فى تعذيبها للضمير
فمتى تنقضى مرارة تلك الساعات وحلاوتها؟
لتكن السعادة من نصيبك، ولتقع الخطيئة علىَّ
فاغفرى أيتها المعبودة.. واهجرى إن شئت
وسيبقى قلبى الذى وهبته لك خالصا
لن تحطمه الدنيا مهما فعلت
وستبقى نفسى فى ظلامها الحالك ذليلة لك
ولو ركع العالم تحت قدمى لما بلغ سعادة قربى منك
آهة منك تشقينى.. ونظرة منك تسعدنى

هكذا تعاظمت شقاوة «بايرون» فدفعته إلى الحب المحرم، وانتشار فضيحته على كل لسان، كما كان يعانى أيضًا من الديون الكثيرة الذى أوقعه فيها بذخه وإسرافه دون تعقل ومرة أخرى يجد نفسه حزينًا كئيبًا، فحتى أخته التى توقع أن تخفف عنه آلامه وأتعابه أصبحت - بفضل عشقه - حملا ثقيلا وتجربة مريرة فى حياته.. ماذا يفعل حتى يخرج من هذا الكابوس إلى الحرية ليكون إنسانًا عاديا؟.

هداه تفكيره إلى أن يتزوج، فالزواج سيمنع كلام الناس عن فضيحته مع أخته، وإذا تزوج بفتاة غنية فإنها تستطيع أن تحل مشاكل ديونه أيضًا، وأخذ يبحث عن تلك الفتاة حتى وجدها وهى «أنا بيلا ميلبانكى» فتاة جميلة غنية مثقفة، تعرف إليها «بايرون» فى حفل عام وأعجب بها وتكرر اللقاء فصارحها برغبته فى الزواج منها، وكانت المفاجأة

والصدمة، أن ترفض الفتاة الزواج منه، ولم يصدق نفسه: وهو الشاعر المعروف واللورد ونجم المجتمع البريطانى الذى تتهافت الحسناوات وتتسارع لمعرفته وصداقته وقرر فى نفسه أن يحطم غرورها ويتزوجها، فأخذ يتقرب منها ويتودد إليها، وكانت الفتاة معجبة به لكنها تخاف على مستقبلها معه وهو الشاعر الشقى المحب للنساء، وأخيرًا قبلت الزواج منه فربما يتغير ويصبح زوجًا مخلصًا سعيدًا.

وفى بداية عام ١٨١٥ تم الزواج فى الكنيسة واستطاع «بايرون» أن يفوز «بأنابيلا»، وبعد الانتهاء من مراسم الزواج فى الكنيسة وأثناء العودة إلى البيت، وبينما تبتسم العروس ابتسامة الأمل فى حياة زوجية سعيدة، وترسم لها أحلام اليقظة حياة ناعمة هادئة مع زوجها الشاعر إذ «ببارون» ينفجر ضاحكًا قائلا فى سخرية تامة:

«.. ها.. ها.. ها.. لقد ذهبت ضحية خيالك وأوهامك.. أتظنين أن فى استطاعة امرأة فى العالم أن تصلحنى؟ يكفى أن تكون زوجتى لأكرهك، ولو كنت زوجة رجل آخر لأعجبتنى أكثر.. يجب أن تعرفى أنك «تزوجت بشيطان رجيم..».

غرقت «أنابيلا» العروس الجميلة فى الدهشة والحيرة.. ما هذا الذى يحدث؟.. ولماذا يتصرف «بايرون» زوجها هكذا يوم زواجه ولأنها تحبه تحملت الكثير من أجل أن يستمر زواجهما ولكنه كان غير محتمل فتارة يكون هادئًا «جنتلمان» رقيقا فى معاملة زوجته، وتارة يكون عصبيا كالبركان ينفجر فيحطم كل شىء أمامه، وفى إحدى

المـرات حطم سـاعته الذهبية تماما. كانت «أنابيـلا» تحبه فتتحمله، وظلت هكذا، لكن الشـيء الذى لم تتحمله هو علاقته الشاذة المحرمة بأخته «أوجسـتا» فقد كانت رسائله لها تقطر حبا وعشقا، وعندما كانا يزورانهـا تلحظ اهتمامـه الكبير لها وحبها هى أيضًا له، وبسـهولة اكتشفت الفضيحة وحاولت أن تكتم السر بين جنباتها ولكنها لم تقدر، وفى زيارة لأسرتها أخذت تفضى لوالديها بكل شىء، وتعجب الوالدان لتصرفـات «بايرون» الشـاذة، وتعجبا أكثر تحمـل ابنتهما له، وقررا أن تنفصل الابنة عن زوجهـا، ولم يوافق اللورد «بايرون» فى البداية، فهدده الجميع بنشـر فضيحته مع أخته على المـلأ، فوافق فى النهاية على الطلاق وكانت «أنابيلا» قد أنجبت له طفلة أسماها «أوجستا آدا».. أى «أوجسـتا» الأخرى، وأعلن «بايرون» الطلاق من «أنابيلا»، وتعجب النـاس كيف تطلب زوجة «بايرون» الطلاق من نجم المجتمع وشـاعره الرقيق؟ وأرسـلت لـه الفتيات الجميلات بخطابـات الغرام وخصلات شـعورهن الذهبية، ولكن «بايرون» كان حزينًا لطلاق زوجته وقرر أن يغادر لندن إلى غير رجعة، وانكب فى بكاء مُر وكتب قصيدة يودع فيها زوجته.. قال فيها:

وداعا إلى الأبد.. وداعا
هذا قلبى طوع أمرك، وإن رفضت الصفح عنى
فقد كشفت صدرى لعينك، فرأيت ما يحويه
وعليه ارتاح رأسك، وأغمض النعاس عينك
فبربك كيف أمكن هكذا أن تطعنيه ؟

بدأت رحلة الغربة «لبايرون» بزيارة أوربا ثم استقر فى سويسرا، وهناك تعرف إلى زميله الشاعر «برسى شيللى» وتوثقت الصداقة بينهما، فهما شاعران إنجليزيان ثارا ضد تقاليد المجتمع القديمة، وكان مصيرهما الابتعاد عن الوطن والتشرد والتشتت فى دول العالم استطاع «شيللى» أن يعيد الهدوء إلى «بايرون» ويشجعه على حب الطبيعة والتأمل، والأمل فى حياة أفضل ومستقبل مشرق على الرغم من كل شىء، ومن سويسرا سافر «بايرون» إلى البندقية المدينة الساحرة، وصادق مجموعة من النساء والرجال وأقبل على الشراب حتى مرض كبده، وضعفت صحته وأصبح مظهره كالشيخ الهرم وهو الذى لم يتجاوز الثلاثين من عمره، ومن حسن حظه أن زار الشاعر «شيللى» البندقية وأحضر «لبايرون» ابنته غير الشرعية من صديقته السابقة «كلير كليرمونت» فشعر برغبة فى أن يرعى ابنته ويغير فلسفته فى الحياة، ويأخذها أكثر جدية فسافر معها إلى مدينة رافينا، وهناك أغدق على الفقراء وتبرع للكنائس والأديرة بمبالغ طائلة، وكانت مدن إيطاليا تموج بالثورة من أجل الحرية وطلبا للدستور، وأعجبته ثورة الشعب، فانضم إلى الثائرين يساعدهم ويشد أزرهم ويمدهم بالمال اللازم لشراء الأسلحة، وتغيرت فعلا فلسفته فى الحياة، وأصبح يناصر الحرية ويتمتع بلذة الكفاح من أجل حياة أفضل، وانتقل إلى بيزا بعد أن ألحق ابنته غير الشرعية فى أحد أديرة رافينا، وفى بيزا تقابل مع صديقه «شيللى»، وعلى الرغم من فلسفته الجديدة وحبه للناس جميعا،

ومساعدته للثوار والشعوب إلا أنه كان قلقا دائما، وربما كان ذلك السبب الرئيسى فى رحلاته وتنقلاته الكثيرة، وفى بيزا جاءته أخبار حزينة زادت من قلقه وضيقه وحزنه، إذ ماتت ابنته غير الشرعية «أليجرا» فى الدير، ثم مات صديقه الشاعر «شيللى» وكان رفيق عمره فى الغربة، ومن الطريف أنه بعد وفاة «شيللى» طلب «بايرون» من أسرته الاحتفاظ بجمجمته للذكرى، لكن الأسرة رفضت طلبه هذا لأن «بايرون» وصل به الشذوذ أن يشرب الخمر فى جماجم أصدقائه، وكان يملك جمجمة يفعل بها ذلك فعلا، ولم يستطع البقاء فى بيزا فتركها وسافر إلى جنوة، وحتى يتخلص من أحزانه وذكرياته الأليمة ترك إيطاليا كلها ورحل إلى اليونان، وكانت تحارب الأتراك من أجل حريتها، ورأى «بايرون» أن يطبق فلسفته الجديدة ويكرس حياته فى مساعدة اليونان على الحصول على حريتها بكل إمكاناته المادية والأدبية، فقطع علاقته بالنساء وباع كل ما يملك، وخلع ملابسه المدنية وارتدى البذلة العسكرية، وقاد جيش التحرير وحقق الانتصارات.

وفى اليوم الثانى والعشرين من شهر يناير عام ١٨٢٤، الموافق عيد ميلاد «بايرون» السادس والثلاثون، تذكر شاعرنا نبوءة قالتها له عرافة منذ طفولته، وهى أن هذا العام أخطر أعوام حياته، وتذكر أيضًا أن والده مات وهو فى هذه السن المبكرة، وشعر بلحظات يأس فأمسك بقلمه وكتب يقول:

لقد أضحت أيامى فى خريفها

وراحت أزاهير عمرى وثماره
ولم يبق لى سوى الألم والحزن
أيتها الروح فلتمض لتبحثى عن قبر جندى
ولن تجديه بسهولة فهو أوفق لمثواك
ثم تلفتى حولك واختارى قبرك
وانعمى بالراحة

وما هى إلا أيام قليلة بعد ذلك وأسلم «بايرون» الروح، ولما عرف أصدقاؤه الخبر صاحوا جميعا.. مات الرجل العظيم.. وفى صباح اليوم التالى أطلقت المدافع تحية لروح الشاعر الشاب، وأغلقت دواوين الحكومة أبوابها ثلاثة أيام، وأعلن الحداد فى كل بلاد اليونان، وانتشر الخبر فى كل أوربا فحزن الناس حزنا شديدًا، ففى فرنسا ارتدت النساء ملابس الحداد السوداء، ووضع الشباب الشارات السوداء على قبعاتهم، وفى لندن وطن الشاعر عم الحزن واعتكف الناس على قراءة أشعاره فى صمت.

بعد ٧٧ يوما من رحيله دفن «بايرون» فى بلده إنجلترا دون الصلاة على جثمانه، فقد رفض رجال الدين الصلاة عليه.

وهكذا مات اللورد الفقير والشاعر الرقيق «بايرون» الذى بدأ حياته شخصية فذة فى عالم اللذة، وختمها شخصية عسكرية فى سبيل الحرية والوطنية.